تطوّر اللغة العربية الفصحى عبر التاريخ

أ. محمد علاق

مقدمة:

يقدّر علماء الفيلولوجيا١ عدد اللّغات المنطوقة الآن عند البشر بثلاثة آلاف لغة، أغلبها لغات محدودة ينطق بها عدد قليل من النّاس، واللّغات الرئيسية التي يتكلّم بها أكثر من مليون شخص للغة الواحدة تزيد قليلا على المائة لغة.

من تلك اللّغات تسع عشرة لغة كبرى يزيد عدد المتكلّمين بكلٍّ منها عن خمسين مليون شخص، وهي:

في جنوب آسيا:

الهندية، والأوردية، والبنغالية، والبنجابية، والتاميلية، والماراثية، والتيلوجية.

وفي بقية آسيا:

الصينية، الملايوية، الأندنوسية، واليابانية، والكورية.

وفي أوروبا:

الروسية، والإيطالية، والألمانية.

يضاف إليها الخمس لغات العابرة للحدود التي يتحدّث بها سكان العديد من الدول؛ وهي اللّغات الأهم في العالم: العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية.

وتُعرف اللّغة العربية التي نتكلّم بها حاليا باللّغة الباقية، وهي لم تُولد كاملة، بل مرّت كغيرها من اللّغات بأطوار، غير أنّها نمت نموا طبيعيا بعد زمن طويل، وقد ظهرت فيها طفرات نوعية بسبب احتكاك الأفكار، بالإضافة إلى الهجرة التي اقتضتها عوامل الطبيعة، وبذلك تعرضت لكثير من التحوّلات قبل أن تدّون وتضبط، وبالتالي لم يصل إلينا - حسب كثير من الأقوال - إلا لغة الحجاز٢.

فما اللغة ؟ وكيف نشأت اللغات الإنسانية الأولى ؟ أهي وحي من عند الله علمها للإنسان ؟ أم هي من وضع الإنسان ؟ وكيف صنعها ؟

ثم ما اللغة العربية ؟ وكيف ولدت ؟ ومتى .. ؟ وما هي أهم مراحل تطورها ..؟

١ - مفهوم اللغة

لقد اختلف العلماء في تعريف اللغة ومفهومها، وليس هناك اتفاق شامل على مفهوم محدّد للغة، ويرجع سبب كثرة التعريفات، وتعدّدها إلى ارتباط اللّغة بكثير من العلوم .

ويُعدّ تعريف اللّغة عند ابن جني "المتوفى ٣٩١هـ" من التّعريفات الدقيقة إلى حدّ بعيد . قال ابن جني: «حدّ اللّغة أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم»٣ وهذا تعريف دقيق يذكر كثيرًا من الجوانب المميزة للغة.

أكّد ابن جني أولا الطبيعة الصوتية للّغة، كما ذكر وظيفتها الاجتماعية في التعبير ونقل الفكر، وذكر أيضا أنها تستخدم في مجتمع؛ فلكلّ قوم لغتهم.

وجاء الباحثون المحدثون بتعريفات مختلفة للّغة، غير أنّها تتفق في مجملها على الطبيعة الصوتية للّغة، ووظيفتها الاجتماعية، وتنوّع البنية اللّغوية من مجتمع إنساني لآخر.

٢ - نظريات نشأة اللغة

اختلف الباحثون قديما وحديثا في موضوع نشأة اللغة الإنسانية الأولى، ومدى نجاعة دراسة هذا الموضوع بين معارضين للبحث فيه إلى درجة الحظر، ومنع الخوض فيه، باعتباره موضوعا لا يمكن التحقّق من صحة وقائعه، وبين مؤيّدين، بل ومُصرّين على مثل هذه البحوث اللّغوية

التي تنبع من التراث المعرفي .

وقد تعددت الآراء والفرضيات التي تفسّر نشأة اللّغة الإنسانية الأولى ومن أهمها ٤:

- نظرية الوحي والإلهام أوالتوقيفية.
- نظرية محاكاة أصوات الطبيعة.
- نظرية الاتفاق والمواضعة والاصطلاح .
- نشأة اللغة العربية.

اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية، نبتت هي وهنّ في أرض واحدة، فلما خرج الساميون من مهدهم لتكاثر عددهم اختلفت لغتهم الأولى، وزاد هذا الاختلاف انقطاع الصلة، وتأثير البيئة، وتراخي الزمن حتى أصبحت كل لهجة منها لغة مستقلة، والعربية تشمل المضرية الفصحى، ولهجات مختلفة تكلمتها قبائل اليمن والحبشة. ولغات العرب على تعددها، واختلافها ترجع إلى لغتين أصليتين :

لغة الشمال ولغة الجنوب :

وبين اللّغتين بون بعيد في الإعراب والضمائر وأحوال الاشتقاق والتصريف، حتى قال أبوعمروبن العلاء : «ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا»٥، على أن اللّغتين وإن اختلفتا لم تكن إحداهما بمعزل عن الأخرى؛ لذلك نجد القحطانيين جَلَوا عن ديارهم بعد سيل العرم، وقد حدث عام ٤٤٧م، كما حقّقة غلازر الألماني٦، وتفرقوا في شمال الجزيرة واستطاعوا بما لهم من قوّة، وبما كانوا عليه من رقي، أن يُخضعوا العدنانيين لسلطانهم في العراق والشام، فكان بين الشعبين اتصال سياسي وتجاري يقرّب بين اللّغتين في الألفاظ، ويجانس بين اللّهجتين في المنطق، دون أن تتغلّب إحداهما على الأخرى، لقوة القحطانيين من جهة ولاعتصام العدنانيين بالصحراء من جهة ثانية، وتطاول الأمد على هذه الحال حتى القرن السادس للميلاد، فأخذت دولة الحميَريين تزول وسلطانهم يتهاوى بتغلب الأحباش على اليمن طورا، وتسلّط الفرس عليهم طورا آخر. وكان العدنانيون على نقيض هؤلاء؛ تتهيّأ لهم أسباب النهضة والألفة والوحدة والاستقلال فالاستقرار، بفضل الأسواق والحج ومنافستهم للحِميريين والفرس، واختلاطهم بالروم، والحبشة عن طريق الحرب والتجارة، ففرضوا لغتهم وأدبهم على حِمير الذليلة المغلوبة.

تغلّب لغة قريش:

لم تتغلب لغات الشمال على لغات الجنوب فحسب، وإنّما استطاعت كذلك أن تتبرّأ ممّا جنته عليها الأمية والهمجية والبداوة من اضطراب المنطق، واختلاف الدلالة، وتعدد الوضع، فتغلبت منها لغة قريش على سائر اللّغات لأسباب دينية واقتصادية واجتماعية أهمّها :

أ - الأسواق :

وكان العرب يقيمونها في أشهر السنة للبيع والتسوق، وينتقلون من بعضها إلى بعض، فتدعوهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول، والمفاوضة في الرأي، والمبادهة بالشعر، والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالمحامد وشرف الأصل، فكان من ذلك للعرب معونة على توحيد اللّسان والعادة والدين والخلق. وأشهر هذه الأسواق: عكاظ، ومجنة وذوالمجاز، وأولاهن أشهر وأقوى أثرا في تهذيب العربية. وكانت تقام من هلال ذي القعدة وتستمر إلى العشرين منه:

ب – أثر مكة وعمل قريش :

كان لموقع مكة أثر بالغ في وحدة اللغة، ونهضة العرب؛ لأنها كانت في النصف الثاني من القرن السادس محطا للقوافل، فكانت قريش أشدّ النّاس بالقبائل ارتباطا، وأكثرهم بالشعوب اختلاطا؛ كانوا يختلطون بالحبشة في الجنوب، وبالفرس في الشرق، وبالروم في الشمال، فتهيّأت لهم بذلك الوسائل لثقافة اللّسان والفكر، واختاروا لغتهم من أفصح اللّغات، ثم أخذ الشعراء يؤثرونها وينشرونها.

٤ - تطور اللغة العربية

× **الكتابة العربية :** يرى فريق من المؤلّفين أنّ الكتابة العربية قد انبثقت عن الخط المسند الحميري الذي يعرف أيضًا بالخط الجنوبي، وأنّ هذا الخط قد وصل إلى موطن المناذرة وبلاد الشام عن طريق القوافل التجارية التي كانت تنتقل بين جنوبي الجزيرة العربية وشماليها، ثم انتقل عن طريق الحجاز إلى بقية الجزيرة.

بينما يرى فريق آخر أن الكتابة العربية هي استمرار متطوّر للكتابة النبطية التي انحدرت من الكتابة الأرامية المتطورة عن الكتابة الفينيقية. وقد اعتمد هذا الفريق في رأيه هذا على النقوش والمكتشفات الأثرية، وكانت الكتابة العربية آنذاك عارية من النقط، خالية من الشكل، شأنها في ذلك شأن الكتابة الأم النبطية التي اشتقت منها، وقد وجدت كتابات على الأحجار وصورها، فالنصوص الثلاثة

الأولى وجدت في سيناء، وهي مؤرخة بين سنتي ٢١٠ و٢٥٣ للميلاد، والنص الرابع وجد في الحجر وهي مدائن صالح وتاريخه ٢٦٧ م، وذُكر كذلك نقش خامس في حوران غير مؤرخ، ولكن المستشرقين اينوليتمان والكونت دي فوج يرجِّحان أن تاريخه يرجع إلى ٢٧٠ م، هذه كلها نصوص ترجع إلى القرن الثالث الميلادي، وهي نصوص عسيرة القراءة، ولكن أشكالها تقترب من هيئة الخط العربي، وكلها دون نقط أوإعجام٧ .

أمّا أقدم نصّ وُجِدَ مكتوبًا بالعربية الفصيحة فهونقش النّمارة الذي وجد على قبر امرئ القيس بن عمروالذي يوصف بأنه ملك العرب في النمارة في اقليم حوران بجنوب فلسطين، وهومؤرخ سنة ٣٢٨م، وهيئة الكتابة في هذا النص قريبة من هيئات الحروف والكلمات في الكتابات الإسلامية الأولى، وه يمثل مرحلة واضحة من مراحل تطور نشوء الخط العربي؛ لأن الكلمات عربية وأشكال الحروف عربية تقريبا.

× العربية بعد نزول القرآن الكريم:

قال تعالى : (وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ٨)، (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ٩)، .. كان نزول القرآن الكريم بالعربية الفصحى أهمّ حَدَث في مراحل تطوّرها، فقد وحّد لهجاتها المختلفة في لغة فصيحة واحدة قائمة في الأساس على لهجة قريش، وأضاف إلى معجمها ألفاظًا كثيرة، وأعطى لألفاظٍ أخرى دلالات جديدة. كما ارتقى ببلاغة التراكيب العربية، وكان سببًا في نشأة علوم اللغة العربية كالنحووالصرف والأصوات وفقه اللغة والبلاغة، فضلاً عن العلوم الشرعية، ثمّ إنه حقّق للعربية سعة الانتشار والعالمية.

× العربية في العصرين الأموي والعباسي :

ظلّت العربية تُكتَب غير مُعْجَمة (غيرمنقوطة) حتى منتصف القرن الأول الهجري، كما ظلّت تُكتَب غير مشكولة بالحركات والسّكنات. فحين دخل أهل الأمصار في الإسلام واختلط العرب بهم، في هذا الوقت بدأ اللحن يظهر عند العرب بفعل احتكاكهم بالمستعمرين، وشاع في بداية العصر الأموي٤١-١٣٢ هـ الموافق لـ ٦٦١-٧٤٩هـ، واستنكر العرب هذه الظاهرة، فانبرى أبوالأسود الدؤلي وتلامذته لوضع رسم إعراب القرآن عن طريق النقط، والشكل، ووضع قواعد النحو، فوَضَع بلَوْن مخالِف من المِداد نُقَطة فوق الحرف للدّلالة على الفتحة، ونُقْطة تحته للدّلالة على الكسرة، ونُقْطةً عن شماله للدّلالة على الضّمّة، ونقطتين فوقه أوتحته أوعن شماله للدّلالة على التّنوين، وتَرَكَ الحرف السّاكن خاليًا من النّقْط. إلا أن هذا الضبط لم يكن يُستعمل إلا في المصحف. وفي القرن الثاني الهجري وضع الخليل بن أحمد طريقة أخرى، بأن جعل للفتحة ألفًا صغيرة مُضطجِعة فوق الحرف، وللكسرة ياءً صغيرة تحته، وللضمّة واوًا صغيرة فوقه، وكان يُكرّر الحرف الصغير في حالة التنوين. ثم تطوّرت هذه الطريقة إلى ماهوشائع اليوم. أما إعجام الحروف (تنقيطها) فتم في زمن عبد الملك بن مروان، وقام به نصر بن عاصم الليثي ويحيى بن يَعْمُر العَدْواني، كما قاما بترتيب الحروف هجائيًا حسب ماهوشائع اليوم، وتركا الترتيب الأبجدي القديم (أبجد هوّز)

وتواصل العمل في العصر العباسي ١٣٢-٦٥٦ هـ الموافق لـ : ٧٥٠ -١٢٥٨ هـ، بشكل مكثف نظرا لاستعانة الحكام العباسيين بالفرس، وازدياد انتشار الإسلام، وكان من نتائج ذلك تأثير واضح في اللغة، حيث ظهر الاعتماد على القياس والتعليل، واعتماد مناهج جديدة في اللغة، ونسجل هنا ظهور علماء أفذاذ في اللغة مثل أبوعمروابن العلاء، وعيسى بن عمر الثقفي، والخليل بن أحمد، وسيبويه، والكسائي فبدأ التأليف في تعليم العربية، فدخلت العربية مرحلة تعلُّمها بطريق الكتاب، وكان هذا هوالأساس الذي قام عليه صَرْح العلوم اللغوية كالنحووالصرف والأصوات وفقه اللغة والبلاغة والمعاجم. فكانت كتبهم النواة الأولى لتأسيس لغة عربية لها مقوماتها التي تقوم عليها أية لغة من منهج، وقواعد، وتراث ... وزاد اختلاف العلماء فيما بينهم في أمور اللغة إلى إنشاء مدارس لغوية، لكل منها مناهجها، وطريقتها، وهذا كله أدى إلى ضرورة الاعتماد على التدوين.

الهوامش

١ دراسة النصوص اللغوية دراسة تاريخية مقارنة، لفهمها والاستعانة بها في دراسة الفروع الأخرى التي يبحث فيها علم اللغة، ولذلك نرى أن مجال الفيلولوجيا يتحدد في قسمين :

- قسم اختص بفك الرموز القديمة والاهتمام بالآثار.
- وقسم اهتم بتحقيق النصوص والمخطوطات بغية نشرها .

٢ انظر حسين مؤنس، تاريخ قريش، ط ١ العصر الحديث للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢

٣ ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، طبعة عالم الكتب، ٣٣/١.

٤ انظر محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، دارغريب للطباعة والنشر والتوزيع.

٥ طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ص٤-٥ والمزهر جـ١ ص١٧٤.

٦ أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة السادسة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٧ الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، ج١، ط ٥، (دار الكتاب العربي، بيرت، ١٩٩٩).

٨ سورة الشورى الآية ٧.

٩ سورة يوسف الآية ٢.